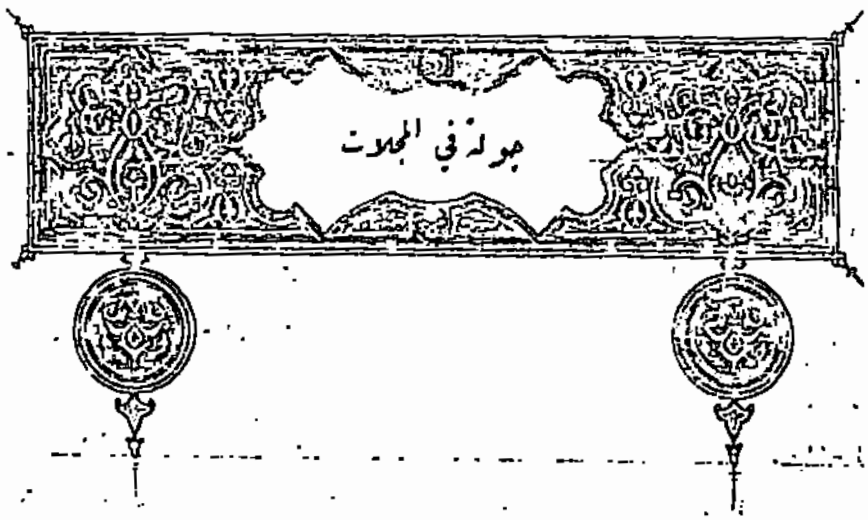

فيصل بين فرنسة والكلمرة

نشر الدكتور جورج سمنه في مجلة « مراسلات الشرق » الفرنسوية (*Correspondance d'Orient*, septembre 1933, p. 97-103) مقالاً شائقاً عن الملك فيصل وما اتصف به من تعقل وحزم، وما كان يجول في نفسه من مطامح وآمال. ولما كان الفقيد من رجالات الشرق في العصر الحاضر، ولما كان الكاتب من مشاهيري المطلعين على حوادث الشرق الادنى في زماننا، وممن عرفوا الملك الراحل عن كثب، رأينا من المفيد تعريب شيء من كلامه في سبيل الحقيقة التاريخية. قال بعد ان وصف مظهر الملك وصفاً دقيقاً (ص: ٩٨):

كان يحكم على الاشياء ببرودة. فلا يجهل ان مساعدة اوربة امر لا بد منه لبلاد الشرق، وان الانتداب كان لها من احسن الامور. لان هذه البلاد، لو ارادت ان تضمن الامن على الحدود، وتوطد النظام في الداخل وتستثمر مواردها الطبيعية، لكانت مهمتها شاقة تتجاوز الحد، ولهبطت موازناتها تحت ثقل الاعباء، ولما وجدت من يمد لها يد المساعدة. ولكنّ فيصلاً، وهو العالم بكل ذلك، ادرك ايضاً ان فكرة كهذه غير شعبية، وانه اذا تمسك به لا ينال رضى الشعب. فاخذ يعلن وطنية اكثر ملاءمةً للرأي العام، لانه ما كان يرى اي خطر في مشايعة عاطفة قد قضي عليها ان تظل زمناً طويلاً في دور التوق، فلا تصبح قابلة التحقيق الا في المستقبل البعيد...

ثم ينتقل الى موقف فيصل من الانكليز والفرنسويين فيقول (ص: ٩٩):

وكثيراً ما اعتقد الناس ان الملك فيصلاً انكليزي الميل. والحقيقة انه كان يحفظ الجميل لانكلترة على ما اتت في سبيله. فعاطفته هذه نفسية. ولقد مثله البعض خصماً لفرنسة، والحق انه ظهر كذلك احياناً. ومع هذا، فقد كان يودّ فرنسة وداً لم يكن مفروضاً دائماً. وكم من مرة قال لي: «اننا نميل الى فرنسة. فهي بمزاجها اقرب الشعوب الى شعبنا. وهي تعرفنا من امد بعيد، وتاريخها مشتبك بتاريخنا. اننا واياها نتفق دائماً، بل نحن بحاجة اليها لتثقفنا. وهي غنية، فلا نخشى ان تفرقنا يوماً بان تفيض عليها فضل سكانها. واخيراً فان مصالحنا، نحن العرب، تقضي علينا ان لا نظلّ وجهاً لوجه مع انكلترة.» وكم شكا فيصل الظروف التي جعلته يتحالف مع الانكليز وحدهم. وكم كان بوده ان يستخدم سياسة التوازن، فيتعاون بوقت واحد مع فرنسة وانكلترة. ويكون عميل الواحدة في سورية وعميل الاخرى في العراق. وهكذا، يصبح قادراً على ان يتلافى من جهة ما يخيّبه القدر من آماله في الجهة الثانية، ويعمل في كل ذلك على الاسراع لتحقيق رغائبه.

ومن الطبيعي ان لا تكون هذه الفكرة من ذوق العمال الانكليز في الشرق. لان فيصلاً، في نظرهم، ما كان الّا آلة مناسبة تمكنهم من تثبيت الاستعمار البريطاني على طريق الهند البرية.

ويذكر الكاتب محاولات الانكليز في تعزيز مصالحهم «مختفين وراء فيصل» بطل الفكرة العربية»، وما كان من جهود فيصل الاتفاق مع الفرنسويين ماعياً في سبيل وضع اخيه علي عرش سورية. بيد ان هذه المساعي انتهت به الى التفكير بانه «قادر على الانتفاع شخصياً من جهوده» وبانه قادر ان يملك يوماً ما في دمشق وبغداد.» وهنا يشير الدكتور الى بعض الذكريات الشخصية فيقول (ص ١٠٠):

حدثني الملك فيصل في احد اسفاره الاخيرة الى باريس، بالحاح اشد مما كان يظهر عادة، عن آماله في تأسيس مملكة سورية، قائلاً ان هذا العرش يعود دون شك الى احد افراد العائلة الهاشمية، الى اخيه علي، مؤكداً ان الوطنيين السوريين لا يعارضون في ذلك.

ثم التقيت بعد ايام، بالزعماء الوطنيين، فكلمتهم عن نيات فيصل الغالية

عليه . فلم يخفوا عليّ انهم بعيدون عن تحبيذ هذه الفكرة . على ان القدر شاء ان يجمعني واياهم في مجلس فيصل في اليوم الثاني . وعادت قضية المملكة السورية على بساط البحث . وكم كان عجبي شديداً اذ تحققت ان الملك والوطنيين يظهرون على اتفاق في ما خصّ المبدأ . فخيّل لي من واجبي ان الفت نظرهم الى ان هذا الاتفاق يستند ولا شك الى سوء تفاهم . فقلت مذكّراً زعماء السوريين : « انكم انفسكم صرّحتم لي بانه لا يظهر لكم ملائماً ان تنصبوا عرشاً في دمشق ، ولا سيما اذا كان الجالس على هذا العرش الملك علي . نعم ، لقد قلتم ان القضية تتطور اذا كان الملك فيصل نفسه المدعوّ الى ملكية دمشق . ولكن هذا فرض غير محتمل ، لان صاحب الجلالة ذاته يعترف بان الملك عينه لا يمكنه ان يحكم مملكتين الواحدة تحت الانتداب البريطاني ، والاخرى تحت الانتداب الفرنسي » .

وكان فيصل يصغي الى الحديث فلم يوضح فكره بالنظر الى قولي . بل اكتفى بان اعرب عن رأيه في هذا القالب الاعتيادي الطفي : « انني اظل تحت تصرف الشعب والدولة المنتدبة في سبيل الخير المشترك . » اذ ذاك فهمت ان الفكرة اصابته ، ولكنه كان يبعد تحقيقها باقل وضوح مما كنت اتصور . كان يعلم انه يتمتع بنفوذ عظيم لدى الشعب السوري وانه مدين به الى ماضيه لا الى كونه اميراً هاشمياً . فكان يؤمل استخدام هذا النفوذ في ارتقائه عرش دمشق . وهكذا ، فقد يتمكن من خلق صلة شخصية بين الدولتين ، دولة سورية ودولة العراق ، شبيهة بالصلة التي ربطت سابقاً نروج باسوج .

وان اموراً هذه احوالها كانت ملائمة لسياسة التوازن التي شاء اتخاذها بين فرنسة وانكلترة . وعلى كل ، فانه لمن المحقق ان فيصلاً ما كان ليهمل اية فرصة ليجذب اليه وجهة نظر السوريين . وقد ادعى مراراً انه يدافع في باريس عن مقاصدهم ومصالحهم .

ثم سرت هذه الفكرة في عقله . حتى انه ، عقيب سفرة ثانية الى فرنسة ، حيث واجه اشخاصاً بارزين استقبلوه بكل لطف ، خيّل اليه انه قادر بعد زمن قريب على ان يعقد تاجين على جبينه . ولكن حاشيته التي ما كانت تقاسمه

الامانية في حفظ السر ، اعلنت مقاصده بصوت عالٍ . فكان ان حدثت عن ذلك الشكوك ،فصار من الواجب تكذيب الاشاعة .والحقيقة ان الفرنسيين لم يغيروا ابدًا موقفهم . فقد صرحوا دائمًا بان سورية حرّة في اختيارها ، وبانهم لا يعارضون ابدًا نوع الحكم الذين تتخذه لها ، سواء أكان جمهوريًا ام ملكيًا . واذ كان ولاة الامور في فرنسة يتحدثون بهذا الكلام ، ما كانوا ليروا بأسًا في قبول ترشيح احد امراء العائلة الهاشمية . على انهم لم يتصوروا ان فيصلًا نفسه يكون موضوع بحثهم . فلم تفتح عيونهم الا في النهاية . وليس من شك في انهم لو ادركوا ذلك لكانوا قاوموا هذه الفكرة فنحوا شخصية فيصل .لان الفرنسي الوسط لا يمكنه ان يفهم معنى لجاوس فيصل على العرش ، وهو يدري رأي فرنسة فيه وحكمها عليه . وقد شعر فيصل بهذا ، حتى انه لم يطلب ، عوضاً عن الامتيازات الاقتصادية التي كان يعرضها على فرنسة ، وعوضاً عن عمله الشخصي تجاه الوطنيين السوريين في سبيل فرنسة ، الا شيئاً واحدًا وهو ، اذا تقرر تأسيس مملكة في دمشق ، ان لا يتم انتخاب الملك بدونه . وهكذا فانه - كان يبعد المرشحين في سبيل عائلته .

.وعليه ، فقد وصل بنا الامر الى طريق لا تنفذ : ان السوريين ما كانوا ليفهموا الملكية الا بفيصل ، فكانوا يبعدون كل مرشح ، غافلين عن ان ملك العراق رجل ، واذًا فانه مائت . وها ان موته الصاعق وضعهم امام الحقيقة . فعلى كل امة ان تشيد مستقبلها على مبادئ ، لا على حياة رجل .